

اللسان.. سعادة وشقاء



► إحدى الخصائص الإنسانية التي وهبها الله - سبحانه وتعالى - إلى ابن آدم هو اللسان الناطق، فالنطق نعمة كبيرة، ولكنه في نفس الوقت نعمة كبيرة أيضاً، فوائد كثيرة وأخطاره جسيمة: إنّه سلاح ذو حدين إن لم يتصرف الإنسان معه بحكمة أورده المهالك. واللسان وإن كان صغيراً في الحجم لكنه عظيم عند الطاعة والمعصية وبه يتميز المؤمن من الكافر والخبيث من الطيب ولا يتبع الكفر من الإيمان إلا بشهادته... ومجال اللسان في الخير والشر واسع كسعة الأرض والسماء. ولم يفلت شيء في الوجود إلا واللسان يتعرض له وينسب إليه الحق والباطل، فمن قيده بقيود العقل والمنطق إضافة للشرع فاز في الدنيا والآخرة، ومن أطلق عنان لسانه ولم يقيده بشعر أو عقل أو منطق فإنه سوف يلاقي الأمرين في الدنيا ويحشر في جملة الخاسرين في الآخرة. وبما أنَّ الكثير من البشر أطلقوا العنان لألسنتهم، تخوض وتلعب في كل حديث من دون قيد أو شرط، ولا موازين عقلية ولا شرعية فقد جاء الشعع الإسلامي ليقيده لنا ويحذرنا من صولاته وجولاته ومن عواقبه الوخيمة، فقد قال - عزَّ من قائل - في سورة ق: (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتَيْدٌ) (ق/ 18). مرَّ الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) برجل كان يتكلم بفصول الكلام، فقال له: "يا هذا: إنك تملي على حافظيك كتاباً إلى ربك، فتكلم بما يعنك ودع ما لا يعنيك". بكل لفظة وكل قول وكل ما يتفوّه به الإنسان فإنَّها تسجل عليه بدون زيادة أو نقصانة وإن كانت مثقال ذرة أو أقل منها، فحتى لفظة "آه" تسجل عليه ويحاسب بها عند الله - سبحانه وتعالى - بأنها كانت لدين

أم دنيا؟ وكلمة "أف" إذا قالها لوالديه، وقس على مثل هذه الألفاظ... فمثل اللسان: كمثل المزارع، مهما يزرع فإنه سوف يحصد ما زرع، إن شر فشر، وإن خير فخير، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وَهُلْ يَكُبُّ النَّاسُ عَلَىٰ مَا خَرَجُوهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَادُ أَلْسُنِهِمْ" ، وفي رواية أخرى، يقول الله تعالى: "يَعْذَبُ الْلِّسَانَ بِعَذَابٍ لَا يَعْذَبُ بِهِ شَيْئًا" من الجوارح. فيقول: أي رب، عذبني بعذاب لم تعذب به شيئاً من الجوارح، فيقال له: خرحت منك كلمة بلغت مشارق الأرض ومغاربها، فسفوك بها الدم الحرام وانتهبا بها المال الحرام، وانتهك بها الفرج الحرام، وعزتي وجلالي لأعد بنك بعذاب لا أتعذب به شيئاً من جوارحك". وما أكثر الكلمات التي تطلق في تسقيط وتجريح الآخرين والحط من قدرهم أو التكلم بما لا يحل من كذب أو غيبة أو نعية وإفشاء سر وتهك ستر مؤمن وما أشبهه. فيجب أن يحاسب الإنسان نفسه قبل أن يحاسب أمام الله - جل جلاله - والخلائق أجمعين، يحاسب نفسه على كل كلمة قالها، وفي حق هي أم باطل؟ وأن كانت في حق، فمن أين علمنا؟ وهل نعلم بموازين الحق؟ فلان قال... من يقول أن فلان لا يقصد الإساءة، أو لا يوجد عنده غرض أو حسد أو حقد أو ما أشبهه؟ وهل هو معصوم... وهل كل ما نسمعه يجب أن نقوله؟ والحديث الشريف يقول: "كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع". وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) بشأن اللسان: "المرء مخبوء تحت لسانه، فزن كلامك وأعرضه على العقل والمعرفة، فإن كان فتكلم، وإن كان غير ذلك فالسكوت خير منه. وليس على الجوارح عبادة أخف مؤونة وأفضل منزلة وأعظم قدرًا عند الله كلام فيه رضي الله عنه وجل جلاله - ولوجهه ونشر آلائه ونعماته في عباده، إلا أن الله لم يجعل فيما بينه وبين رسالته معنى يكشف ما أسر إليهم من مكنونات علمه ومخزونات وحيه غير الكلام، وكذلك بين الرسل والأمم، فثبت بهذا إن الله أفضل الوسائل للعبادة وكذلك لا معصية أثقل على العبد وأسخ عقوبة عند الله وأشدها ملامة وأعجلها سآمة عند الخلق منه، واللسان ترجمان الضمير وصاحب خبر القلب، وبه ينكشف ما في سر الباطن، وعليه يحاسب الخلق يوم القيمة، والكلام خمر يسكر العقول ما كان منه لغير الله، وليس شيء أحق بطول السجن من اللسان". يجب أن يسجن اللسان، لا أن يطلق، خصوصاً في مجالس البطالين، ويخوض في الباطل ويتكلم بالمعاصي والفحش وما أشبهه... وقد ورد النهي عن هذه المجالس والركون إليها في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (ص)، حيث قال: "أعظم الناس خطايا يوم القيمة أكثرهم خوضاً في الباطل"، وقد أشار - سبحانه وتعالى - إلى الذين يرتدون هذه المجالس بعد أن يدخلوا النار مخزيين يتساءل عنهم أصحاب التعيم حيث يقول - سبحانه وتعالى - في سورة المدثر: (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمَنِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرَمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُونَ مِنَ الْمُصَلَّيْنَ * وَلَمْ نَكُونْ زُطُوعًا الْمَسْكِينَ * وَكُنْدَمًا زَخُوضًا مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنْدَمًا زُكَذَبًا بِرَبَّهُ وَمَ

الدِّينَ * حَتَّى أَرَادَنَا إِلَيْهِمْ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (المدثر/ 38-48). فقد وصفهم الله - سبحانه وتعالى - أولاً: بالمجرمين! هذا الذي يذكر الآخرين بغير حق ويکيل عليهم التهم ويهتك سترهم ويكشف سرهم وينقص من شأنهم ولا يزكي إلا نفسه وعمله، ويرى قليل عمله كثيراً، وكثير عمل الآخرين قليلاً وحقيراً... ويحسد يحدق ويشتم فلا غرابة أن يكون مصيره وأمثاله إلى سفر، أعادنا الله منها. فإذا، وبعد كل هذا لم نجد طريقاً نسلكه بأسنتنا غير العبادة والتكلم بما يرضي الله سبحانه، وإنما فالسكت خير لنا من الواقع في تبعات الكلام والخوف من عوائده ومصادره وقد قال الإمام الصادق (ع): "لا يزال العبد المؤمن يكتب محسناً ما دام ساكتاً، فإذا تكلم كتب محسناً أو مسيئاً". وإن أردنا أن نتكلم، فيجب أن نعلم بأنَّ الكلام يقع على أربعة أوجه كما جاء في الإخبار الواردة: " فهو إما ذكر، أو لغو، أو لهو، أو خطأ: فالذكر: ما ذكر فيه اسم الله أو ما دل عليه، واللغو: ما خلا عن ذكر الله وما لا مفهوم له، واللهو: ما لم يقصد فيه وجه عقلاني مقبول، والخطأ: ما لم يصب الحقيقة". فجري بالمسلم أن يكون كلامه ذكراً وصواباً، بعيداً عن اللغو واللهو. لكي يوفق لحياة سعيدة في الدنيا والآخرة.

* الكاتب من كندا

المصدر: مجلة الإيمان/ العدد 78 لسنة 1419هـ